عنوان الدرس : النظرية المجازية للأسطورة

مقدمة :

يعد التصور البدائي تصور لا عقلاني لأنه يجعل الإنسان لا يميز بين الواقع و المثال و بين الذاتي والموضوعي لأنه غير مؤهل لاستخدام اللغة في التعبير عن عواطفه و انفعالاته و أفكاره فلجأ إلى الأسطورة لأنها تعد وسيلته الوحيدة للسيطرة على العالم من حوله و الوصول الى حالة من التوازن بين القوى المتصارعة في نفسه عن طريق التمثيل و التصوير و كانت الصورة عنده هي الحقيقة بعينها وذلك لغلبة الأسلوب التصويري على الفكر
الأسطوري ذلك لان التخيل كما يرى فيكو يبدأ بالجهل و عدم المعرفة الذي يستدعي الدهشة و الفضول و عندما لا يقدر الإنسان على فهم الأشياء و الظواهر فو يسقط عليها صفاته لأنه يجعل من نفسه مرجعا عند غياب العلة و هكذا يبدأ التشخيص والتجسيد

النظرية الرمزية

ان انتقال الإنسان من التعامل مع الشئ الملموس إلى التعامل مع صورته الذهنية و استخدام رمزه هو انتقال من لغة الإشارة و العلامة إلى المفهوم المجرد و الرمز و هو انتقال من اللغة المخبرة إلى اللغة الرامزة و هو يعني صياغة البشر لعالمهم الطبيعي و الاجتماعي لغويا

وفي خضم هذا الانتقال كان التفكير الخيالي القوي هو السابق و الفاعل في عملية الإدراك عند أناس يتسمون بضعف فكرهم المنطقي و فقر لغتهم التعبيرية لقد شكل الإنسان البدائي صور خياله قبل تشكيل الكليات فسبق الغموض الوضوح عنده وغنى قبل ان يتكلم و تحدث شعرا قبل ان ينثر و استخدم الرمز قبل ان يستخدم المصطلح الفني

وفي ظل هذه الموازاة الرمزية كان للغة الدور الأساس في الإدراك يشبه دور الأسطورة فكان في التعبير -هذا الفن الجديد العجيب – وسيلة سحرية –

مثل وسائل الأسطورة الأخرى كالتصوير والتمثيل و التشكيل – للسيطرة على الظواهر و أداة قوية لمعرفتها فكانت القوة السحرية للكلمة تجعل الأشياء اذا سميت معروفة للجماعة و خاضعة لها كما كانت تجعل الفرد – اذا سمته الجماعة -وجودا حقيقيا في الجماعة و قوة من وقواها وكما ادت الكلمة دورا سحريا في تحديد العلاقة داخل الجماعة فإنها قد أدت دورا سحريا في تنظيم علاقة الجماعة كلها في مواجهتها العملية للطبيعة ولهذا لم تكن الكلمة في التفكير الأسطوري مجرد إشارة او صورة او شكل مرقوم و انما كانت بما تمتلك من قوة و حياة ومعنى قادرة على التأثير في الأشياء تدرأ خطرا و تجلب نفعا تبطل نحسا و تجلب سعدا تنزل المطر و توقف سيلا و ليست الرقى والتعاويذ و أفوال الكهنة والعرافين إلا تجسيدا عميقا لإيمان الإنسان القديم بالقدرة السحرية لها وفي كل هذا نشأت قرابة قوية بين اللغة و الأسطورة وجذور مشتركة و علاقات متبادلة لا تستطيع من خلالها ان نفرق إحداهما عن الأخرى ذلك أن الإنسان حينما امتلك القدرة على

الكلام كانت تحت سيطرة خلق الأسطورة انهما توامان لدى العقل البدائي فكلتاهما قائمة على تجربة إنسانية عامة مبكرة و هي تجربة ذات طبيعة اجتماعية اكثر منها مادية

المجاز اللغوي الأسطوري:

ليس المقصود بالمجاز هنا المعنى المتأخر الذي هو ثمرة من ثمرات الخيال حين يتم نقل اللفظ من شئ الى شئ و انما المقصود هو ذلك المجاز الجوهري الذي كان ضرورة للإنسان البدائي عبر من خلاله عن حاجاته الروحية و رتب علاقاته مع الكون و فق رؤيته و معرفته و تصوراته فابدع الأشياء حين تخيلها و تمثلها و تصورها و بالتالي المجاز هنا ليس لفظة مفردة او جملة نبحث عن اصلها الحقيقي في العرف و الشرع و اللغة و انما المرتبط بالتصورات الكبرى التي تحيل الى الاتساق الثقافية و العقائد الدينية و الرؤى الوجودية

وعلى الرغم من ان العلاقة في نقل اللفظ من مجال الى أخر هي التي شغلت بلاغيينا القدماء و انتجت حديثا مفصلا عن العلاقات التي تربط بين الأشياء و أدت إلى تسميات مثل الاستعارة و المجاز المرسل و المجاز العقلي و الكناية و غيرها و ثنائيات مثل الحقيقي والمجازي و المشبه والمشبه به وعلى الرغم من ذلك الا اننا لا نعدم من بين هؤلاء من انتبه الى نسبية هذه العلاقة و اختلافها باختلاف الثقافات مثل قول عبد القاهر الجرجاني *ان الاعتبارات اللغوية تتبع أحوال المخلوقين و عاداتهم و ما يقتضيه ظاهر البنية و موضوع الجلبة*فكل لغة و الحال هذه هي كون صغير و لكل منها وجهتها و طريقتها و هدفها في تسمية الأشياء و اختلاف المجازات بين الثقافات يعبر عن اختلاف رؤية هذه الثقافات للعالم فكل لغة ترى العالم عبر صورها المحسوسة و نتيجة لاختلاف تصوراتها تختلف مجازاتها التي تعبر عن رؤاها ,

ويعد الموقف المثيولوجي هو الاساس في نشاة المجاز في اللغة و الاسطورة على السواءو هما نتاج هذا

التصور الذي يجعل العالم الارضي منصاعا للعالم السماوي و ليس نتاج التصور الواقعي الناتج عن التماس مع المحسوسات و الأشياء المادية و لو ان الإنسان بدا بالواقع بعيدا عن التصور المثيولوجي – وهذا مستحيل- لكانت اللغة على غير ما هي عليه الان و لخلت من المجاز و لكننا الان نحن الذين نصنع المجاز و لا نرثه عن الأقدمين و مادام المعتقد الميثولوجي هو الذي كان سائدا فمن البديهي ان تبدأ اللغة بالمجاز لا الحقيقة

وان مابدى لنا في لغة الأساطير مجازا بدا للبدائي حقيقة و ان ما نسميه اليوم تجسيدا او تجسيما او تمثيلا كان في الزمن الأول ضرورة من ضرورات التعبير و كان أيمانا و عقيدة و الكلام الإنساني مجازي في صميمه فهو زاخر بالتشبيهات و الاستعارات ولا يستطيع العقل البدائي فهم هذه التشبيهات فهما مجازيا بل ينظر اليها على انها حقائق فهذا التفسير الحرفي للكلمات المجازية هو الذي احدث النقلة من التصور الأولي لعبادة الأسلاف الى عبادة الكائنات الإنسانية ثم

الى عبادة النباتات و الحيوانات حتى انتهى الأمر إلى عبادة قوى الطبيعة في النهاية

ومصفى القول النظرية الرمزية تقوم على ان كل الأساطير بكل أنواعها ليست سوى مجازات فهمت على غير وجهها الصحيح